مكانة الاجتهاد من التشريع الاسلامي

الاستاذ العلامة محمد العنبرى

تمهيـــد :

توقفت الحياة الاسلامية عن النمو وضعفت آثارها ومفاهيمها فى مواجهة الحياة وانحسر عنها ذلك المد الاسلامى الخالد الكامن فى روح التشريع الاسلامى وانحسرت معه تلك التاثيرات الايجابيـة التى تفاعلت مع الحياة الانسانية فى مختلف عصورها .

ذلك كله حدث فى اليوم الذى خمد فيه التفكير الحر الواعى ونزل عن مستواه وعن سماته الاصيلة واصبح مشلولا بادى الضعف والهـزال عـن اداء وظيفته كسلاح منحه الله للانسان ليقيم له ميزانا بين جوانبه يرتاد له احسن الطرق واصدق الخطوط الكبرى لبناء حياة انسانية كريمة تمتاز بطهارة العقيدة وسمو الخلق وسعة الكفاية وعمق اليقين وروعـة التجرد وصدق الاخلاص فى كل مجال .

لم يزل العالم الانسانى يعرف للاسلام هـذه اليد الازلية الكريمة . وهذه النعمة الشاملة . وهى نعمة العافية النفسية والخلقية والاجتماعية المجتمعة فى فكرته الاساسية التى توحى بكثير من الخصائص والمزايا . والتى تمتد خيوطها فى الحياة الانسانية كلها . وفى وحدتها المتماسكة . وفى حاسة الارتباطات بين مطالب الروح والجسد . والفرد والجماعـة . امتدادا يسير على سنن الاصالة والالتزام والاضطلاع بالتوفيق بين جميع مقتضيات الحياة .

فلا سند لترسيخ العقيدة وتخليصها ممـا اصابها . ولا سند للخلق المترفع النبيل . ولا سند للتوفيق والتنسيق بين مطالب الحياة الاجتماعيـة ووزنها بميزان المصلحة الهادفة — الا فى الفكـر الانسانى الذى نستحضر له مشاهـده وصياغتـه الرائعة فى كل مجال . والذى من شأنه ان يقـود الاجيال الى خير ما يطلب منها — واحسن ما يراد لها . بيد انه يجب ان نضع حدا فاصلا بين الافكار الهادفة التى تنطلق من مصدر القوة النفسية وعلى اساس مقاييس وموازين صادقة غير متأثرة بدوافع خارجيـة ولا بضغـوط مختلفـة — وبين الافكار المخدوعة الطائشة ذات الحساسيات المريضة التى تريد التمتع بحرية الراى او بحرية التجديد فى اطار التقليد الذى يسلم بالسيادة . وليس لاحد ان يخدع نفسه بممارسة التفكير فى هذا القبيل — الذى يقود الى « التطور المطلق » الذى هو اساس الالحـاد والكفر بالقيم . كما انه ليس له سلطان على ان يخدع غيره . الا من هانت عليهم انفسهم وضاعت عليهم انسانيتهم . وفقدوا ايمانهم بالهبة الكبرى التى منحهم الله تعالى فعطلوها عن اداء مهمتها .

واقل ما يقال فى هؤلاء المنادين بهذه الصيحات المارة — انهم تصدق عليهم صفة واحدة . وهى العجرفة الفكرية المحمومة التى لا تستريح الى مبدأ ولا الى قيم ولا الى خلق . وانسان يعيش على هذا

النحو يردد كثيرا من الالحان . يستخدم عقله وتفكيره على غير الوجه المطلوب منه — هو انسان معكوس الطاقة يمتاز بجفاف التصور وقصور النظر وفساد الذوق وبلادة الحس وخفة الوزن الى مدى بعيد . وقديما قيل : « اقرا فى غير خضوع وفكر فى غير غرور » .

وقضية الفكر الاسلامى قضية فرغ منها الزمن . وفصل فيها الى غير رجعة . قضية تمتاز بقوة انشائية مبدعة كبرى لصالح المجتمع الانسانى كله . لانها فكرة ذات اصالة وحيوية حساسة جدا فى صميم قواعد الدين الاسلامى . لا تستبد بها الاختيارات . ولا تقلق راحتها التيارات ولا تدفعها يد الزمان الى الوراء . لا تقر السطحية . ولا تقبل من العلم دلالة دون دلالة طالما توفرت على ثمراتها النقية . ولا تقف عند الدرجة الاولى من سلم المعرفة . فى اليوم الذى ظلت فيه اوروبا حبيسة الاحتكارات الفكرية لجماعة قليلة متعصبة متمثلة فى رجال الدين الى ان قامت ثورة رجال الفكر بقيادة « لوثر » 1453 — 1546 واتباعه مما يدل على ان اليقضة الفكرية الاسلامية — كانت اشارة مبكرة لرجال يقظة الفكر الغربى الذى سبقته فى هذا المجال بعشرة قرون . ودعوى مستشار وزير المستعمرات البريطانية « هانوتو » : ان الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية — مدينان للفكر اليونانى والرومانى — ليست لها دلالتها المحترمة ووزنها الراجح . بل لها دلالتها على خفة زادها من المعرفة ومن الانصاف كذلك . وخصوصا صدورها من مثله كرجل فكر ورجل دولة . وقد كفانا المصلح الكبير الاستاذ الامام محمد عبده قدس الله روحه — الرد عليه بما شاع وذاع فى العالم الاسلامى حينذاك .

ونجد فريقا آخر من المستشرقين يهرف بما لا يعرف يروج للفكرة القائلة : بان النهضة الاسلامية كان مصدرها الثورة الفرنسية التى ذر قرنها سنة 1789 م — مع ان التاريخ قد سجل انه قد دبت عوامل اليقضة قبل ذلك بكثير وفى مختلف العصور . ولكن لا غرابة فى ذلك فالدراسة الاستشراقية التى تنبض بحقد صليبى . والتى تفرك اصابع الضغينة . والتى لا تتسم بالطابع العلمى النزيه — قد اجمعت امرها على الصاق كل خطيئة بالاسلام . وعلى اضافة كل سيئة اليه .

وكيفما كان عمق المحن والمرارات القاسية التى صبرت العالم الاسلامى واصطلى بنارها دهرا طويلا — فان ذلك كان رحمة من الله به ليستوثق لنفسه من صلابة الطريق ويدفع عن نفسه كل عار فى منطلقه الجديد . ويزيح امامه كل المعوقات فى طريق اتصاله بماضيه وبتراثه الملىء بالنور والقوة .

واذا كانت المحن التى مرت بالعالم الاسلامى لها ضراوتها ولها أبعادها — فان محنة العالم الاسلامى اليوم هى ابعد اثرا واعظم خطرا . لان المحن التى مرت به لم تمس الجوانب الفكرية . وانما كانت محنا صبت عليه صبا عن آثار تدفق القوى المادية والمبادرات الآلية الخاطفة الهادفة الى تعطيل حس القوة الاسلامية .

اما المحنة الحالية — وهى محنة الفكر — فانها تمسه فى صميمه . نتيجة الاحتكاكات والهاب التحرشات والتجنيات المدروسة والموضوعة بدقة واتمان وباهتمام متزايد .

تعرض العالم الاسلامى لمحنتين كبيرتين فى تاريخه . المحنة الاولى : محنة التتر التى شغلت المجتمع الاسلامى فترة من الزمن وكادت تطوى بساطه وتقلص ظله . وتملأ الرقعة الاسلامية كلها بجرائمها وويلاتها لولا وقفة مصر فى وجههم . فاوقفوا تيارهم وادالوا لنا منهم . وانقذوا ما يمكن انقاذه . ولولا وقفة مصر لكانت صفحة العالم الاسلامى على غير الوجه التى نشاهده اليوم .

والمحنة الثانية محنة الحروب الصليبية . وهى محنة بيتت لها عواصم الدول المسيحية يتقدمها الرؤساء والملوك وجيوش الغزاة الزاحفة التى تكبر عن العد والاحصاء . ولكن قضى الله تعالى ان يوفر ثمرات هذه الجهود وهذه الحملات العنيفة لصالح الاسلام والمسلمين بعدما صمموا العزم على سحق

قوتهم فى عقر دارها .

لا اريد التوسع فى آثار المحنتين وما لهما من ذيول وملابسات وتغطيات على العالم الاسلامى . ولكنى اقتصر على محل العبرة . ذلك انه بالرغم عن ملاحقات لاعداء ومواكب الاحداث التى كانت لها مضاعفاتها . فان لسان روح الاسلام كان ابلغ من لسان هذه الاحداث . واذا كان الاعداء قد استنفدوا اغراضهم واعدادهم . فان الاسلام لا زال لم يستنفذ اغراضه واعداده . بل لا يزال مستمرا فى مداره لم يتغير طعمه ولا لونه — كقوة قادرة على التصرف فى هذه الحياة وتغذيتها بالغذاء اللازم والسير بها الى ابعادها الآمنة باطراد .

ومن اجل ذلك لما يئس اعداء الاسلام — فى حسابهم الاخير — من القضاء على الاسلام وعلى مبادئه عن عدم توازن القوى المادية — فتحوا واجهة جديدة هى واجهة التلويث الفكرى والدس والوقيعة — والافتراء وترويج البضائع الفكرية الزائفة التى تحمل عناصر الهدم والتخريب . ولقد قويت شوكتهم فى هذه الواجهة وبسطوا نفوذهم حينا من الدهر فامتلكوا الضعفاء واستضعفوا الاقوياء . وتصدت قوى موجهة لترويج الشائعات حول الاسلام والضرب على اقفية المسلمين وتخدير عقولهم واستنزاف قوتهم . وكم قاسى دعاة الاصلاح والراصدون للحركة الاسلامية من عناء فى تبديد هذه الغشاوات وفى ازالة هذه العصابات السوداء عن اعين المسلمين . وفى تحطيم الحواجز التى تقف فى وجه تفتحهم وتحررهم . وفى الحقيقة ان هذه الواجهة كانت اسوا واجهة وافظع حدث يتسم بحظوظ واسعة فى خلق صدمة ثقافية سدد سهامها العدو الى اعماق الطبقة المثقفة . والتى لا تزال آثارها ومخلفاتها ورواسبها ماثلة للعيان . شاهدة على فسوقها فى الاجيال الصاعدة .

وامامنا الكثير من الامثلة والكثير من مظاهر النشاط والعدوان على الفكر الاسلامى منذ فجر الاسلام وكلها تتسم بطابع واحد . حيث يكثر القالة فى كل مكان وتنشط معامل الافك والتزوير والانتحال وخلق الاساطير فى كل جهة . ويتسع نطاق التدجيل والشعوذة الفكرية والاخلاط المدسوسة فى كل ميدان وقد تضافرت جهود النشاط الصليبى والنشاط اليهودى على تحريف الوثائق الاسلامية . وعلى ثمن حملاتهم الزاحفة على التراث الاسلامى . كان لذلك رواجه الاليم الذى لا يستهان به . وكان له سلطانه على عدد ليس بالقليل من علماء المسلمين فى بعض فترات التاريخ — فى الوقت الذى صادف فيه ارتخاء نفسيا وعلميا . وجفافا قاسيا . وتخلفا واسعا . هون على العدو كل صعب . وذلل له كل عقبة . وازاح عن طريقه كل اذى . وهذا سر ما نراه من اشتمال بعض كتب التفسير والحديث والسيرة النبوية على خرافات وعلى اساطير وعلى احاديث وآثار ومرويات فى كل جانب يعلوها طابع الافتراء والتزوير .

ومهما اختلفت بواعث اعداء الاسلام فى الدس والوقيعة . ومهما اختلفت دوافعهم واهدافهم السياسية والاجتماعية فانهم يلتقون عند هدف واحد وهو : محاربة الدعوة الاسلامية . والسيطرة على منابع اليقظة والانتباه فى نفوس المسلمين . واذا كان هذا العدوان فى شدة وطأته — يحاول طمس معالم الاسلام والحال انه قد اكتظت به المحافل الاسلامية — فيجب ان تستنفر له جميع الجهود . وتحشد له كل القوى المتخصصة وتستنفد له جميع الطاقات . لازالة آثاره ومحو اوزاره والقوف فى وجهه حيثما كان .

واقرب هذه الامثلة الى موضوعنا واسبقها الى الذهن . ما اشيع ويشاع من قصور التشريع الاسلامى عن المستويات الايجابية التى لها فعاليتها فى سد فراغ الحياة التى هى دائما فى تحرك مستمر . ووقوفه عن التطور لصالح مقتضيات العصر . لذا كان كل ما فى الاسلام خاضعا للتقنين وللتطورات المناسبة لحاجة الانسان فى غدوه ورواحه . لا فرق فى ذلك بين العبادات الشخصية والمعاملات الاجتماعية . هكذا يقول المستشرق « غولد تسيهر » ومثل هذه الشائعات وهذه الافكار التى يردد صداها كثير من المستشرقين — تروع المسلمين من

مراكز قوتهم . وتدع فيه اثرا لا يتخلصون من تبعاته ومن اضوائه الزائفة الا بالجهاد والاجتهاد هذان هما العنصران الاساسيان فى نهضة الامم . وكما قال العلامة « ابو الحسن الندوى » هما عنصر الزعامة فى كل امة . اما العنصر الاجتهادى فهو مثابة الاسلام فى احياء تراثه وتصحيح وثائقه على ضوء مناهج تصفيته الازلية التى اقام دعائمها صفوة هذه الامة واعلامها الاوائل ضرورة الاجتهاد فوق كل ضرورة . فاهل الفكر الاجتهادى هم الذين تتوفر لديهم مؤهلات الصلاحية . اذا نحن شاهدنا ما لديهم من قوة دافعة وقدرة قادرة وخبرة واسعة وكفاءة ناضجة قديرة على فهم القوى الملهمة والروح الدافعة لتطور النظام الاسلامى وشموله . وقديرة كذلك على اثبات حق الشريعة الاسلامية فى كفالة الحياة الانسانية . وفى حقها فى الخلود والبقاء وفى اعتبارها كقوة صالحة لكل عنصر قائمة بذاتها ليست بحاجة الى الاستعارة والاستفادة من نظم اجنبية اخرى . مهما تكن التقلبات الزمنية والتحولات الطارئة .

هذا هو المطلوب فى رجل الاجتهاد المطلق الذى تعقد عليه الآمال فى تمثيل التشريع الاسلامى لكى يستوعب جميع التطورات الانسانية ويعبر عنها بوضوح فى تحرى طريق الاستجابة لجميع ما جد فى الحياة . ويعيش معها فى وضوح كذلك بعيدا عن التحجر المذهبى والاجترار الفكرى والتبعية القاصرة المشلولة .

لانه لا مكان للقول فى موضوع الاجتهاد — اذا لم يكن المفهوم منه معنى الحرية الفكرية الهادفة التى تتحرى منهجية خاصة من مناهج البحث فى صلب التشريع الاسلامى على أساس مبادئه ومآخذه . ولا مكان للقول فيه كذلك اذا لم يكن له دعوة جادة صارخة الى تأهيل الدين الاسلامى لكى يحمل رسالته القادرة على التجاوب مع الحضارة والتطور الخاضع لمبادئه . وتلتى كل مظاهر النشاط الانسانى . وخاصة فى الوقت الذى عظم فيه المطلوب وقل المساعد . وكثرت الشكوى . وتألبت على الناس صنوف التركيبات الحضارية وصنوف قوى الشر الرابض فى كل مكان .

وقد خلف لنا اسلافنا من الرعيل الاول من مادة الاجتهاد تراثا ضخما وميراثا وافرا ومآخذ فقهية عالية وامثلة حية بارزة . كل ذلك فى سبيل ترسيخ الفكرة الاسلامية فى اعماق التاريخ . وفى بقاء كلمة الاجتهاد كلمة حية باقية الى الابد . كعنصر عضوى له فعاليته فى المجتمع وله دلالته الواسعة التى لا تغيب عنها الشمس . ايمانا منهم قدس الله ارواحهم — بأن اعتناق المنهج التشريعى الاسلامى عن طريق التحرر الفكرى والاقتناع بالدليل وتحكيم المنطق النفسى المستقل — هو سبيل الانتصار على ايادى العبث والاستخفاف والقوى المجهولة التى تحاول الاستشراف والاخذ بمقاليد الناس . ومن اجل ذلك يجب ان نذكرهم ولا ننساهم بكامل الفخر — كى نخلق من مدرستهم افكارا متفتحة واعية نبنى على غرارها ونستفيد من خبراتها وناخذ من حيث اخذوا .

الا انه — للاسف الشديد — بقدر ما سعدت المجتمعات الاسلامية بممارسة الاجتهاد الذى ساق لها مكاسب ثرية فى شد اطرافها وتقارب خطواتها . وتواصل عهودها . على مستوى لا مكان فيه للفجوات ولا للتخلى ولا لانعدام الصياغة منه — بقدر ما تسرب اليها الوهن . ودب اليها اليأس والعقم والفتور . واستشرى فيها داء الخمول — نتيجة التقليد والجمود الحرفى على النصوص . وترديد الفاظ يدور حولها الجدل فى اطار زاوية حادة . داخل شرح او حاشية او تقرير . بما جعلها تعيش فى رتابة معزولة بارادتها وبغير ارادتها عن معترك الحياة . فكان من النتائج الحتمية لذلك — أن وقف التيار التشريعى الذى فقد حيويته واستمراره — حينئذ — ككائن حى ينمو ويتطور — وانفصل عن واقع الحياة . واصبح مبتوت الصلة بها . ووقع الاقتصار على مضمون « الكتاب الاسلامى » والكتاب وحده فى حال انتقاله من القوة

الى الضعف . ومن الوضوح الى الغموض . ومن الفهم المباشر للتعاليم الاسلامية من كتاب الله الى اتخاذ الوسطاء . فلا عجب اذا راينا وقوف الحركة العقلية فى غيبة الاجتهاد — تفاجئنا بآثار سيئة وتصورات عقيمة . خفت معها قيم الاسلام فى نفوس المسلمين . واصبحوا اكثر استعدادا لقبول التلقينات المختلفة . والايحاءات الفاسدة . التى هى تمهيد لغزو اجنبى لا يرحم . لا يقتصر على سلب راحة الفكر . بل يتعداه الى سلب الوطن .

واذا كان لطلاب الاصلاح راى فى ايقاف هذه التعبئات الزاحفة على المجتمع الاسلامى الناجمة عن الافكار الجامدة . فما عليهم — قبل اتخاذ اية خطوة — الا ان يستلهموا رشدهم من المواقف الخالدة التى وقفها اسلافنا ويستحضروا الحقائق التاريخية التى عاشوها والادوار التى مروا بها . وكم كان لهم من الفتوحات الفكرية والعلمية كل ذلك سيزيل عنهم آثار الاعياء والانحسار فى طريق انتصابهم لاداء هذه الامانة الملقاة على عاتقهم والتى هى فرض قائم على الامة الاسلامية ان لا تتخلى عنه . وها هى ذى اقوالهم شاهدة على ذلك لمن لم يشهد فى نفسه تلك الحقيقة فنجد الامام الشافعى المتوفى 204 — ينتهى من رسالته الى القول بأن الاجتهاد فريضة مقدسة . يثيب الله على فعلها ويعاقب على تركها . حيث يقول : فجماع ما ابان الله لخلقه فى كتابه مما تعبدهم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه من وجوه : 1 — فمنها ما ابان لخلقه مثل جمل فرائضه فى ان عليهم صلاة وزكاة . . 2 — ومنها ما احكم فرضه بكتابه . وبين كيف هو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتهما . 3 — ومنها ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله عز وجل فيه نص حكم . وقد فرض الله عز وجل فى كتابه طاعة رسوله والانتهاء الى حكمه . 4 — ومنها ما فرض الله عز وجل على خلقه « الاجتهاد » فى طلبه . وابتلى طاعتهم فى الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم فى غيره مما فرض عليهم » .

وروى الحافظ ابو عمر بن عبد البر فى كتابه — جامع بيان العلم وفضله — عن ابن عمر — رض — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يصلى احد العصر الا فى بنى قريظة . فأدركهم وقت العصر فى الطريق فقال بعضهم لا نصلى حتى ناتيها . وقال بعضهم بل نصلى ولم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبى (ص) فلم يعنف واحدة من الطائفتين « قال ابو عمر : هذا سبيل الاجتهاد على الوصول عند جماعة من الفقهاء » ويقول الامام ابو اسحاق الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » فى تفسير قوله تعالى « اليوم اكملت لكم دينكم » « فلم يبق للدين حاجة يحتاج اليها فى الضروريات والحاجيات الا وقد بينت غاية البيان . نعم يبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولا الى نظر المجتهد . فان قاعدة الاجتهاد ثابتة فى الكتاب والسنة فلا بد من اعمالها . ولا يسع تركها . واذا ثبتت فى الشريعة شعرت بأن ثم مجالا للاجتهاد . ثم يقول : ولو كان المراد بالآية — الكمال بحسب تحصيل الجزئيات بالفعل — فالجزئيات لا نهاية لها . فلا تنحصر برسوم وقد نص العلماء على هذا المعنى . فانما المراد بالكمال بحسب ما يحتاج اليه من القواعد الكلية التى يجرى عليها ما لا نهاية له من النوازل » ويصرح الحافظ ابن القيم فى اعلام الموقعين بأن الراى وجد بين الصحابة فى زمن النبى (ص) اذ يقول : « وقد اجتهد الصحابة فى زمن النبى فى كثير من الاحكام ولم يعنفهم كما امرهم يوم الاحزاب بأن يصلوا العصر فى بنى قريظة . فاجتهد بعضهم فصلاها فى الطريق . وقال لم يرد منا التأخير وانما اراد سرعة النهوض . فنظروا الى المعنى . واجتهد آخرون واخروها الى بنى قريظة . فصلوها ليلا . نظروا الى اللفظ . وهؤلاء سلف اهل الظاهر واولئك سلف اهل المعانى والقياس » .

ويقول العلامة ابن خلدون فى المقدمة : « انتهى مد الفقه الاسلامى الى جمود وجهل بأمور الحياة وسياسة العمران . واصبح التقليد هو التجارة الرابحة . ولم يبق للفقهاء الا نقل الرواية عن اصحاب المذاهب الاربعة . لا محصول — اليوم — للفقه الا هذا » .

هكذا يحدثنا التاريخ فيطيل حديثه عن حرص هؤلاء الائمة الاعلام على بقاء التشريع الاسلامى — كما اراد له الله — متصلا بواقع الحياة ومهيمنا عليها . وقوة زاحفة على كل من يحاول قطع صلة ماضيها بحاضرها . بفضل الاعدادات المتعاقبة من الدراسات الاجتهادية التى يتسع مجالها فى مجمل النصوص مما لم يرد فيه نص قاطع . فانه — كما يقال — لا قياس مع وجود النص . أما النصوص التفصيلية التى لا تتغير — وهذا هو عنصر العبادات — فانها لا مكان فيها لنظريات الاجتهاد . اما الذى تتوارد عليه نظريات المجتهدين فهو ميدان المعاملات الاجتماعية .

وان تعجب فاعجب من نزول عدد غير قليل من المستشرقين الى تصورات التشريع الاسلامى واعترافهم بتفوقه وغزارة مادته . رغم ما على ابصارهم من حجب . استمع معى الى ما يقوله المستشرق المجرى « قمبرى » (1) — ان فقهكم واسع جدا الى درجة اننى اعجب كلما فكرت فى انكم لم تستنبطوا منه الاحكام والانظمة الموافقة لبلادكم وزمانكم » . والى مايقوله الفيلسوف « غوته » (2) : أية شريعة لن تتمكن أن تعلو فوق شرع محمد . وان التشريع فى الغرب ناقص على الرغم من تقدمه . ناقص بالنسبة للتعاليم الاسلامية . واتهم اهل اوروبا بجميع مفاهيمهم انهم لم يصلوا الى ما وصل محمد . وانه سوف لا يتقدم عليه احد » والى ما يقوله الفيلسوف « برناردشو » : — لقد وضعت دين الاسلام موضع الاعتبار بسبب حيويته المدهشة فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى انه حائز اهلية الهضم لاطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع ان يكون جذابا لكل جيل من الناس » عجيب والله حقا ان تتسع صدور الغربيين الذين لاحت لهم سمات الاصالة والابداع المشتملة على مجموعة انشائية ذات قيمة التشريع الاسلامى — ولا تتسع صدور اهله وذويه الذين اعدهم الله لتحمل هذه الرسالة وائتمنهم عليها فمن أين اتت هذه الصيحات باغلاق باب الاجتهاد . وما مصدرها . وما هى الايحاءات التى اوحت بتغيير هذا الملتقى الفكرى الذى صحب الركب الانسانى من بداية الطريق عن مجراه الطبيعى .

كل الدلائل تدل على انه كيفما كانت التفسيرات. وكيفما كانت تحليلات الناس وتصوراتهم لتحلل هذه الفكرة الاجتهادية من نفوسهم . وكيفما كان عنف الاحداث التى تغير ما بالناس — فلا تعدو أن تكون ردة فكرية ونكسة نفسية . لا بد ان نشهد لها مصارعها وتأثيراتها السلبية التى تعكس معطيات الافراد والجماعات .

فما جمد التشريع الاسلامى ولا وقف نموه . ولا انقطع عن مواكبة الاجيال . وما اغلق باب الاجتهاد فى يوم من الايام . وانما هى انكار الناس ومواهبهم يعتريها ما يعتريها احيانا من الضحالة والجفاف وضيق الافق . فتصدر احكامها العفوية عن غير علم ولا روية لان حقائق الاشياء لا تخضع الا لقوة ذات امتياز وذات رصيد فى التصرفات الانسانية التى لها ابعادها على مدى الدهر . وليس من شانها اطلاقا أن تلعب بها التيارات وتعلق بها التفاهات . فان لها من قوة الدفع وارهاق الحس ما

---

(1) المصدر بحث الاستاذ احمد بهجت . بعنوان : نظرة فى التشريع الاسلامى .
(2) المصدر السابق .

يدفع عنها قسوة الاشباح والفكرة الاجتهادية هى فكرة ماجورة توفى اجرها على كل حال . وهى طريق الوصول الى الحق والى الخير العام والى القضاء على استعجام الفكرة الاسلامية — والى ايقاف حشود منتظرة تعمل على خلق اضافات سيئة لصيقة بالاسلام . فكيف يتصور ان نهدم ركنا ركينا من الاسلام — هذه صورته وهذا محتواه — بحجة أن انتشار عقد الخلافة العباسية فى القرن 4 هـ — قد فتح الباب على مصراعيه امام الدعاة والادعياء وامام النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة . فكان الامر يقتضى ايقاض حراسة قوية تكمن وراء المقدسات الاسلامية خصوصا بعد انتصاب حكومات اعجمية رافقتها موجات سياسية واجتماعية يعرف منها الاسلام وينكر فكانت هذه الحراسة تتجلى فى ايقاف تدفق الاجتهاد . وحرمان الاجيال من التمتع بثمرات العلم وحسنات الحضارة الاسلامية الكامنة فى مبادئه وتعاليمه . فكان هذا داعيا لجمهرة من علماء المسلمين الى المناداة باغلاق باب الاجتهاد . ومنهم الامام القفال المتوفى سنة 417 هـ حيث نادى بصوت جهير باغلاق باب الاجتهاد — ولم يتورع عن نسبته الى الخلق اجمعين حيث يقول : « والخلق كالمتفقين على انه لا مجتهد بعد اليوم » فى هذا التعبير المختزل يدشن الامام القفال فكرة اغلاق باب الاجتهاد . ويسجل صفحة جديدة فى تاريخ الاسلام لا عهد له بها فى وقت مبكر . فماذا يفعل غيره ممن عاش بعده فى ظروف متأخرة . والحال انه قد لقى من عنت الايام وهزالها وشدائدها وضرواتها الكالحة . لا شك انه سيصب نقمته ويطلقها صرخة مدوية ساخطة تحمل اعلام النكير على كل من يدعو الى الاجتهاد . وهذا ما حدث بالفعل فى العصور المتأخرة حيث استغلق على الناس مسالك الاسترشاد بدينهم . واحتلت التبعية القاتلة من نفوسهم محل الصدارة . فكانت لذلك مخلفات وأصداء استبدت بكثير من الناس .

ولكن كان فضل الله على هذه الامة عظيما — انه لا يدعها لتجنيات الدهر . ولا يسلمها الى مرارات الايام وتحدياتها منحرفة عن الخط الانسانى الاصيل بل يقيض للرجال — للحق رجالا يعلنون له حجته . ويردون له نهبته . ويقيمون ما مال منه . ويدفعون عنه غوائل الاحداث . لا يضعون عصاهم عن عاتقه . ولا تلين فى جانب الحق قناتهم . فنجد العلامة المجاهد العز بن عبد السلام من علماء القرن السابع قد توسط الميدان لابراز صورة الحق بيضاء نقية فى هذا الصدد — فيقول : « وقد اختلفوا متى انسد باب الاجتهاد على اقوال ما انزل الله بها من سلطان. قيل بعد مائتين من الهجرة وقيل بعد الشافعى . وقيل بعد الاوزاعى وسفيان . وعند هؤلاء أن الارض قد خلت من قائم بحجة الله ينظر فى الكتاب والسنة ويأخذ الاحكام وان لا يفتى أحد بما فيهما الا بعد عرضه على قول مقلده . فان وافقه حكم وافتى والا رده . وهذه اقوال فاسدة — فانه ان وقعت حادثة غير منصوص عليها أو فيها خلاف بين السلف . فلا بد فيها من الاجتهاد من كتاب او سنة . وما يقول سوى هذا الا صاحب هذيان » .

والامام محمد بن على الشوكانى — 1255 هـ له كلمته فى الموضوع فيقول : « ان قول القائلين بخلو العصر من المجتهدين مما يقضى بالعجب لانهم ان كانوا قالوا ذلك باعتبار أن الله رفع ما تفضل به على السابقين من كمال العقل وقوة الفهم . فهذه دعوى على الله باطلة . وان كانوا قالوا ذلك باعتبار ان السابقين تيسر لهم من العلم — ووسائل الاجتهاد والبحث فى القرآن والسنة — ما لم يتيسر لمن بعدهم فهذه دعوى تخالف الواقع . فان العلم ووسائل الاجتهاد أصبحت أيسر للمتأخرين » .

وقد شنع بالنكير عدد غير قليل من علماء الاسلام نكتفى بهذا القدر من مواقفهم لان الملحمة بين التقليد والاجتهاد وان كانت قد استغرقت زمنا

ليس باليسير كان لها مخاضها الشديد . وكانت لها ملابساتها وزرايتها بالمجتمعات الاسلامية — الا انها لم تثمر ثمرتها المرجوة فى تعتيم الفكرة الاسلامية اساسا وفى عزلها عن الحياة الانسانية بل على العكس كانت سببا فى ايتاف العزائم . وباعثا من بواعث اليقظة والانتباه . وحافزا الى استكمال العدة فى طريق طرد الاشباح . لانه كيفما كانت حدة الخصومة بين الفكرتين . وكيفما كان ميزان القوى بينهما . فان للفكرة الاسلامية التى يحملها احد الجانبين ما يقود بالضرورة الى الانتصار على كل حال . الا انه يعترضها ما يعترض ادوار التاريخ وما تمليه من احداث لا تحدث جزافا . ومن ضغوط مختلفة لا تتريث بالناس تمشى فى مدارها على سنن التقابل الذى هو اداة كل تكيف طبيعى . هى تخطيطات الحياة والاحداث لا بد ان تتخطى الحواجز وتتحدى كل هوان وتهوين . ولا بد ان تصدق عليها السنة الازلية فى العمران البشرى التى تتسم بطابع رد الفعل وبحتمية التاريخ . وتلك هى سمة كل ظاهرة اجتماعية لا بد ان تستخدم وسائلها لكى تحصل على نتائجها . ولا بد لها ايضا ان تخضع لقانون السببية العام فى صدقه وشموله وتصوراته — وتوالده على مدى الدهر . لان الدنيا وظروفها وكثافة ملابساتها وحسها الاجتماعى لا تتجاوز مستوى هذه السنة القائمة فى المجتمع . فكلما استقبلت الحياة طورا يتسم بطابع السخافة والتردى والتحلل فاننا ننتظر لها ميلاد حدث آخر سيستهل صارخا تجهزت له باسباب الرشد ومناعة الحساسية والعافية . والعكس بالعكس . هذه صفة ملازمة لادوار التاريخ ملازمة الشكل للمضمون من الحق ان لا نكتفى فيها بتسلسل الاحداث . بل بتقييمها ودراسة انتقاضاتها . وتحليل مواقفها . والوقوف على اسرارها . وعن هذه الدراسة يستجلى لنا بأوضح صورة : كيف تولدت الاحداث وكيف تجاوبت اصداؤها وكيف تطورت الحياة واكتملت صفوفها ونمت قوتها عن طريق قوة الدفع بين جنسين متمازجين متنافرين لا غنى لاحدهما عن الآخر . والمثل المعاصر يقول : « البلاشفة ابناء القياصرة » .

وبعد . فاذا كنا نلمس من هذا كله عزاءنا وشعورنا بالارتياح — وهذا خير ما استفدناه من هذا الاعداد ازاء ما لحق الفكرة الاسلامية من ملاحقات فى قديمها وفى حديثها . وفيما اضيف اليها من اضافات . وفيما مهد لها من تمهيدات لابراز علل زاحفة عليها — والحال اننا نشهد لها مواكب النصر تعبر فى كل مكان وتتوسط كل ميدان — فاننا نلمس لها من ذلك ما هو ابقى واقوى — وهذا ما يملا قلوبنا ايمانا وغبطة — وهو ما نشهد لها ويشهد لها الناس جميعا — ما استرشدوا بالحق — من صدق تفسيراتها وصدق تصوراتها وكشفها عن حقائق ليست فى متناول البشر . واستيعابها لمفاهيم ملات على الانسان — فى جميع اطواره — سمعه وبصره . وانسابت مع فكرته وروحه وغريزته وعاطفته وشعوره . بل ومع معنى وجوده بالاضافة الى مرورها فى عنق تجارب وتصرفات انسانية قاسية عاشت تحت مرارتها دهرا طويلا . خرجت من كل ذلك مشرقة الجبين باسمة الثغر واضحة المعالم . والله بالغ امره . ولكن اكثر الناس لا يعلمون .